صادق جواد سليمان
ندوة في "مركز الحوار العربي-الأمريكي"
واشنطن
٩ يناير ٢٠٠٢

# أمريكا والعالم العربي: أيهما أساء فهم الآخر؟

شـــكرا أخي صبحي...هو في الواقع لطف منك ورعاية تحيطني بها دوما، من ذلك دعوتي للتحدث في هذا المنتدى المتمـــيز بنشـــاطه الفكري وأسلوبه في الحوار، والذي أنا مدين له، ومدين لك لقيامك عليه ... مدين بما كسبت هنا من معرفة وكونت من صداقات اعدها من خير مكاسبي في الحياة. شكر الله سعيك، ووفقك لكل خير.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وطاب مساؤكم

وأنـــا بينكم من جديد دعني أبدأ بالإعراب عن سعادتي بالعودة. كنت منذ أغسطس الماضي على سفر: حلا وترحالا بين عُمان والإمارات العربية والكويت. كنت في مسقط يوم ١١-٩. قبل الحدث بيوم أحسست بضيق دونما سبب أعرف لـــه - إحســـاسٌ دفعني إلى أن أكتب للأخ صبحي عشية الحدث أن ساعة الصدق توشك أن تقع لتقوض جل هذا الجهد الـــذي بذل طوال السنين الماضية لأجل إبقاء العلاقة العربية الأمريكية سالكة بالرغم من عثارها المتكرر بشتى العقبات. كتبـــت أيضا، أن نبوءة صاميوءل هنتنجتن بصراع الحضارات تكتسب صدقية أكبر، وأن زعم فواد عجمي أن الدول لا الحضـــارات هي الفاعل الحقيقي على مسرح الأحداث، زعم يتراجع أمام نزوع الشعوب إلى تأكيد خصوصياتها الحضارية بمعزل عن اهتمامات الدول.

لا، لم يكن رجما بالغيب، ولا علما مسبقا بما كان حينه يدبر في الخفاء وعلى وشك أن يفجر في العراء. كان مجرد شـــعور كئيـــب بانـــزلاق العلاقة العربية الأمريكية مع مرور كل يوم إلى خفض جديد - أمرٌ صرت أخشى أن يجر إلى مواجهة مستديمة تستنزف الطاقة لدينا وتعطل الإصلاح.

إثـــر الحدث لم يكن يجمعني مجلس إلا ويطغي عليه ذكر الحدث ومسبباته. وقد راعني ما كنت أسمعه من بعض الناس من تبرير للحدث وتغاض عن عنصر الإرهاب فيه. راعني أيضا أن أجد أن الامتعاض من أمريكا يحمل العديد من العـــرب علـــى تصـــديق ما لا يستقيم - من قبيل ما راج إثر الحدث مباشرة أن ٤٠٠٠ يهودي تخلفوا عن العمل في البرجين ذلك الصباح، لكونهم على علم مسبق بما سيقع.

من جانب آخر، كنت في نفسي ألتمس العذر لمن أستمع إليهم لمحدودية معرفتهم بأمريكا، ولكون ما تتكون لديهم من انطباعات عن هذه الأمة تأتي متأثرة بالدرجة الأولى بما يلمسون، بحق وفي واقع الحال، من إجحاف السياسة الأمريكية الداعمة دأبا إسرائيل في رفضها الظالم لحقوق الشعب الفلسطيني.

وراء هذا كنت ألمس للامتعاض سببا ذا طابع إديولوجي: تحرجٌ مستبطن من تفوق الحضارة الغربية عامة والخبرة الإمريكية خاصة على سائر حضارات العالم في سائر نشاطات البشر: كنت ألاحظ هذا تحديدا على خطاب الإسلاميين، إذ أنهم - صوابا على ما أرى - يقرؤون في نجاح الحضارة الغربية نجاحا للفكر العلماني المتناقض مع الفكر الديني، سيما أن هـــذا الفكرَ العلماني قد تبنته وترجمت هديه عمليا في تنظيم حياتها العامة سائرُ مجتمعات هذا العصر، الدائنة بمختلف الأديان.

في الوقت نفسه، كنت أتابع - على بعد - ما تتخذ هنا في الولايات المتحدة من إجراءات أمنية صارمة باعثها تخوف شـــديد إزاء احـــتمال حدوث عمليات إرهابية أخرى، وأرصد ما يجري من تركيز تحديدا على العرب ضمن مناخ مشحون إزاءهـــم بارتـــياب شديد. كنت أساءل من أسر قلقة على أولاد لها يدرسون هنا في مختلف الجامعات، إنْ غدوا عُرضة لأذى أو اعتداء. كان يحزنني كلام أمريكي أقرأه أو أسمعه عن العرب، مشوبٌ بسوء فهم، تحامل، وانتقاص.

من هذا وذاك نشأ لدي التساؤل الذي أتخذته عنوانا لهذا الحديث: أمريكا والعالم العربي: أيهما أساء فهم الآخر؟

حديثـــي، إذن، هـــو جـــواب علـــى هذا التساؤل، وجوابي، بإيجاز، هو أن كليهما أساء فهم الآخر. في التفاعل بين الإمريكيـــين والعـــرب أرى ســـوء فهـــم متبادل مزمن، وأرى أن قلة الإكتراث باستمراره وتفاقمه يضر بالعلاقة العربية الأمريكية باطراد مخيف.

## تنظير عام:

كتنظـــير عام، يُســـاء فهم الآخر عندما يُفهم الآخر على غير ما هو عليه، عندما تعزى تصرفاته لغايات ليست واردة لديـــه، عـــندما يُظـــن به ظنَ السوْء في جل ما يقول ويفعل ويزمع. إساءة فهم الآخر، بهذا التعريف، ظاهرة دارجة في

سياق التفاعل البشري. إنه يبرز بين أفراد ويبرز بين جماعات. على صعيد أخطر، سوء الفهم يحصل ما بين شعوب، ما بين ثقافات، ما بين أديان. فإذا ترك ليستمرعلى هذه الصعد العامة، فإنه يستفحل حتى يصبغ مجمل منظور الحضارات وتصرفاتها إزاء بعضها البعض. عندها تقترب ساعة صدام كبير. عندها، ما بدأ خلافا محددا ينتهي صراعا مطلقا يسري أثره في الأجيال.

الخطورة في سوء الفهم، إذن، ليست في نشوئه ابتداء بقدر ما هي في تركه لاحقا ليستمر، فيتفاقم، فيتفجر. على المسرح العالمي المعاصر نرى عديدا من حالات سوء الفهم: نراها تشتد وتخف، تنشأ وتزول: نراها ما بين دول متحالفة استراتيجيا، وما بين دول تتبادل الاعتماد في أمور حيوية، ما بين دول تترابط بصيغ تعاونية وثيقة في أمور ذات نفع مشترك. نرى حالات سوء الفهم ما بين دول تتشارك شعوبها ذات الخبرة التاريخية والثقافة والدين، كأقطار الوطن العربي. إجمالا، نرى حالات سوء الفهم تطفح دون انقطاع في تدافع الأفراد والمجتمعات عَبرالعالم.

لكنّ في المعتاد، حالات سوء الفهم سرعان ما تشخص فتصحح، أو تطوق، أو تركن جانبا ريثما تخفَ وطأتُها أو يستجدَ ظرفٌ أنسب لمعالجتها فتجاوزها بعد حين. أما حيث تترك لتتفاقم، فهي تزداد تمنعا على التصحيح. سياسا، من السهل المغري لأيما مجتمع أن يلوم أوجه قصور كامنة في فهمه للمجتمع الآخر على قصور في فهم المجتمع الآخر له: بذلك تنشأ حلقة مفرغة لسوء فهم متبادل مزمن. إن السياسيين والملتمسين الأعذار من الوطنيين قلما يتخلون عن عادة تبرير عجزهم الذاتي عن تصحيح الأمور بادعاء أن عجزهم هو من صنع أجانب مغرضين.

لكن ذلك لا يعود يفيد بعد حين. التماس أعذار قديمة، اجترار حجج اجترت مئات المرات من قبل، تجاهل حقائق مستجدة، صعبة، وضاغطة، رفض نقد الذات، كل ذلك يركم الضرر ويزيد من تعقيد الأمور. حتى أن تعود الأمم لتتفحص بصدق ما يكدر بينها العلاقات، حتى أن تعود لتقيم بنظر سديد الإشكالات التي تغذي ما يسري بينها من سوء فهم، حتى أن تتبين وضوحا وخيم العواقب التي تنتظر إخفاقها في إزالة تلك المكدرات والإشكالات – حتى أن تبادر إلى ذلك على نحو جاد وخليص، لا شيئ يُحل أو يُسوى، ولا أرضية ترسى لبداية عهد جديد.

## العلاقة العربية–الأمريكية:

في إطار ما نحن بصدده في هذا الحديث، من الواضح أن بين الولايات المتحدة والعالم العربي يعشش سوء فهم متبادل: عويص، مزمن، مقلق، ... سوء فهم لا يفتأ يلون نظرة كل منهما للآخر، كما لا يفتأ يعقد ويصعب تعاملهما مع ما بينهما من قضايا حيوية، سياسيةٍ، استراتيجية، اقتصادية، وغير ذلك. من خلال ما مارستُ من عمل سياسي في سنوات خلت، أذكر أنني أدركت مبكرا ملازمة هذا الإشكال للحوار العربي الأمريكي، الأمر الذي حدا بي – أنا الذي ما كنت أعرف عن الخلفية الأمريكية شيئا يذكر – أن أتدارس الخبرة الأمريكية ما استطعت لأتمكن بوعي بها من مخاطبة النظير الأمريكي خطابا يفهمه بيُسر. كنت أرى، كما لا زلت، أنه لكي تنجح العلاقة ما بيننا وتستقر وتثمر، لا يجدي أن نتحدث عن المصالح بمعزل عن رغبة خالصة في تحسين فهم بعضنا لبعض. ما يُجدي، ويمكن أن يُرسي العلاقة بيننا على نهج سليم، هو أن نتحدث عن المصالح ونعمل على تطويرها وفق منظور فكري وخلقي مشترك أو متوافق، وضمن مناخ حسن ظن متبادل.

اليوم، أكثر من أي وقت مضى، تستدعي العلاقة العربية الأمريكية مراجعة وتقويما على نحو شامل وجذري: تستدعي تصويبا في المضمون، ترشيدا في المسار، تحديدا للوجهة، وإزالة لما علق بها من سوء فهم متبادل متراكم. لقد استنفدنا ما كان للعلاقة العربية الأمريكية من رصيد إيجابي تكوّن لها في عهود خلت، وأرى أن حان الوقت لنبني منذ اليوم رصيدا جديدا يقينا معا مهالك صدام حضاري من قبيل ما أنذر به صاميوءل هنتنجتن عام ١٩٩٣ ، وصارت نذره اليوم تلوح مهددة في الأفق.

## بناءات سوء الفهم:

ما بناءات سوء الفهم هذا؟ لست في هذا الحديث بصدد استعراض القضايا السياسية التي تتعارض إزاءها الرؤى والمواقف بين أمريكا والعالم العربي، ولا بتفنيد تلك الرؤى والمواقف. ما سأتحدث عنه هو مناخ سوء الفهم المتبادل الذي أراه يُعطب التعامل مع تلك القضايا، ويؤدي إلى تفريغ الحوار وتكريس الخلاف. لقد قيل في أدبياتنا أن السُخط يبدي المساوئ، ونحن والأمريكيون ساخط بعضنا على بعض. قيل أيضا أن من لا يحسن الظن بك لا يتعقل خطابك، وربما في ذلك ما يفسر كوننا والامريكيين إزمانا في حوار مجدب.

لأستعرضْ، إذن، ما أجد من بناءات سوء الفهم لدى العرب إزاء الولايات المتحدة، وهي مما تردد، تصريحا حينا وتلميحا حينا آخر، في سائرالكتابات، في الإعلام، وفي الحديث العام والخاص. ثم لأستعرضْ ما أجد منها لدى الأمريكيين إزاء العرب، وهي أيضا مما تردد، تصريحا حينا وتلميحا حينا آخر، في سائرالكتابات، في الإعلام، وفي الحديث العام والخاص. ما يظهر من هذا التنابذ في الخلف يُستخفى في الواجهة: أي في التحاور بين السياسيين والدبلوماسيين من الجانبين. لكن ظلال هذا التنابذ تبقى مخيمة على وعي كل جانب لدى التعامل مع الجانب الآخر،

مهمـــا تجـــاملا فـــي ظاهر الحال. من ذلك ينشأ حوار متكلف، إن لم أقل نفاق متبادل، حيث كل يخادع الآخر، ولا يخدع سوى نفسه في المؤدى الأخير.

## في الجانب العربي:

فـــي الجانـــب العربـــي تسمع في التنابذ الخلفي أن الولايات المتحدة كيان قام على تصفية عرقية للسكان الأصليين، الهـــنود الحمر، وإذن فهو من مبتدأ التأسيس كيان قسري، مفتقر إلى منشأ شرعي أو مرتكز خلقي. وتسمع أن أمريكا مجـــتمع نشأ مستغلا، إذ بنى صرحه الاقتصادي ابتداء على استرقاق الأفارقة واستغلال عمال مسخرين. تسمع أيضا أن أمـــريكا ليست أمة بالمعني الصحيح: أنها بالأحرى تجمع أناس غير متجانسين – شذاذ آفاق لفظتهم مجتمعاتهم فغامروا بالهجرة الى عالم جديد. لذا، لا توجد أصالة في الخبرة الأمريكية، وما يوجد هو فلتان فكري وخواء خلقي يجحدان معا القيم والأعراف التي استقرت عليها البشرية منذ القديم.

وتســـمع إذا أصغيت بعد، أن أمريكا مجتمع مادوي بحت، لا يعرف للمعنوية أو الروحانية معنى يذكر، وأن حافز هذا المجـــتمع فيما يبتكر وينتج مما ينفع الناس حافز تجاري صرف. من جراء هذه النزعة المادوية الصميمة تنهب أمريكا ثـــروات الأمم. من جرائها أيضا تشن أمريكا حروبا ظالمة، وتحمي بالقوة أنظمة سياسة فاسدة ترعى لها مصالحها ضد رغبات الشعوب.

ثـــم تسمع من يقول أن أمريكا لا تعرف الأخلاق ولا تمارس الفكر، ولا تعنى بحقوق الإنسان بصدق. أنها بالأحرى تمارس قسريا قوة بنتها بطم سخرته لبسط الهيمنة على الآخرين. أخيرا، في أيما حديث عن أمريكا يؤكد دأبا أن الزمام الأمريكي في قبضة اليهود، سياسيا، استراتيجيا، أقتصاديا، إعلاميا، أكاديميا، وفي غير ذلك، وأن هذا التحكم اليهودي هو ما يصوغ القرار الأمريكي آخر النهار.

## غياب التوازن:

لا أظـــن أننـــي أخطأت كثيرا أو بالغت، في استقراء بعض ما يروج عن الولايات المتحدة من انطباعات في الحديث العربـــي. لا أزعـــم أن لـــيس لهذه الانطباعات قسط من الصحة أو أساس في حقيقة الأمر. لا أرى أن لا يعبرعن هذه الانطـــباعات أو أن لا يذكـــر مـــثلها على الإطلاق. لكنني أزعم أن من الأجدر النظرُ إلى كلية الصورة لا جزليتها، وذكرُ الحســـنات إلـــى جانـــب الســـيئات، ابتغاء الموضوعية واتقاء التعصب. إن الحسنات يذهبن السيئات، بذلك ينبئنا القرآن الكريم. ويدلنا العقل على أن من الحصافة تأكيد الحسنات لأجل ترجيح حسن الظن.

جديـــر أن يذكـــر، مـــثلا، أن أحفاد الأمريكيين الهنود، وأحفاد الأمريكيين الأفارقة، وأحفاد العمال المسخرين، اليوم مواطـــنون متساوون مع أحفاد من لقى أجداد هؤلاء من أجداد هؤلاء أذى بالأمس، وذلك بفضل التطور المدني المتواصل فـــي خـــبرة هذه الأمة منذ التأسيس ... أنه بالرغم من تعددية ثقافات المنشأ، صهرت الخبرة الوطنية الأمريكية الوافدين فـــي تجانس ثقافي تحت وحدة دستورية وتكافؤ أمام القانون... أن حرية المعتقد الديني صينت للجميع في دستور فصل الديـــن عن تقرير الشأن الوطني، وحظر على الدولة اتخاذ دين لها، أو إعلاء دين على دين... أن الأصالة بمعنى السلفية تعوق التطور، وأن انعتاق الخبرة الأمريكية بُدأ من وصاية القديم هو ما حرك فكرها وأطلق يدها في استكشاف الجديد.

جديـــر أيضا أن يشار أن المجتمع الأمريكي ليس ماديا بأكثر من المجتمع العربي حيثما تتوافر أسباب المادوية لدى العـــرب، كمـــا هو الحال في مجتمعات النفط، ... أن الابتكاراتَ الأمريكية المستفادَ منها عالميا، بل المعولَ عليها في جل الاحتـــياجات البشرية المعاصرة، هي ثمار عقول تهوي العلم وتنشد الخير أكثر منها ثمارُ عقول تلهث وراء مال أو تبتغي بسط نفوذ... أن الإنفاق الخيري لدى الأمريكيين أكثرُ منه لدى كثير من الأمم ... وأن المساعدات الأمريكية لدول فقيرة، بما بينها دول عربية، وبما في ذلك إعفاء ديون مستحقة، أمر يجدر أن يذكر.

ولنـــتفكر بشكل عريض: أهو في المحصل الأخير استغلال أن يأتي من يستخرج لك ثروة من عمق بر وبحر لم تكن لتستخرجها باقتدار ذاتي؟ أهو بسط لنفوذ أن يشخص لك الداء ويوفر لك أسباب الوقاية والشفاء؟ أهو نهب أن يستنبط لك علما ويبتكر لك معدات ومهارات تطور بها حياتك للأحسن؟ ولنتذكر تحديدا: أهو إسهام زهيد تطوير الإنتاج الزراعي حتى أمكن معه إنهاءُ مجاعات كانت تفتك دأبا بالملايين عبر العالم حتى عهد قريب، وأمكن تباعا إطعام ستة بلايين إنسانا مدار الأرض في هذا الحاضر؟ أهو عمل بخس تيسير التواصل والسفر، وتنظيم التجارة والائتمان المالي، كما هو ميسر لـــنا اليوم؟ أهو جهد طفيف هذا البناء الدؤوب لمعرفة الإنسان عن الكون والحياة وعن نفسه، ثم توفير تلك المعرفة في مناهج المدارس والجامعات عبر العالم لتناول أجيال صاعدة؟

ليســـت أمريكا، بأي معيار متوازن، قوة شر في العالم، بل وإن لها مآثر خير تمس حياة الناس يوميا في كل مكان. ليســـت أمـــريكا مجتمعا منفلتا فكريا، ففي ريادتها في العلوم الطبيعية والإنسانية وابتكارها نظما وتكنولوجيا يستفيد منها الـــناس فـــي كـــل مكـــان عطـــاء فكري حميد وغزير. ليست أمريكا مجتمعا خاويا خلقيا، ففي سبقها في دسترة حقوق المواطـــنة، تقنينها للحريات المدنية، عملها لأجل تعميم الديمقراطية، دعمها لحقوق الإنسان، استقبالها لملايين الوافدين

الجـدد مـن شـتى الملل والثقافات، شواهدُ خلقية لا تنكر. أخيرا، خلاف ما يُظن عربيا ويُؤكد، القرارُ القومي الأمريكي يصـنعه الأمريكـيون من خلال تنازع وتحاور، لا اليهود. نعم، المواطنون اليهود طرف مؤثر في صنع القرار الأمريكي نسبة إلى قضايا الشرق الأوسط، لكنهم ليسوا صانعي القرار. بنظري، بقدر ما يستوعب العرب موضوعيا طبيعة العملية السياسـية الأمريكـية بمفاهـيما وضـوابطها وتوازناتهـا ودوافعهـا الذاتية، يغدون أقدر على تلمس طرق التأثير في القرارالأمريكي، ويغدون أكفأ في التعامل معه موضوعيا، دونما تعقد أو تعقيد.

مـع ذلـك، مـا من أمة تفتر بنفسها إلا وتخطئ، وأمريكا اغترت بنفسها فأخطأت في فيتنام خطأ جسيما دفعت ثمنه بـأرواح مواطنـيها، باضطراب وئامها الوطني، وبتراجع اعتبارها بين الأمم. أمريكا لا تزال تخطئ إذ هي تحمي أنظمة سياسية فاسدة، تحسبا أنها سترعي المصالح الأمريكية على نحو حقيقي مستديم، وظني أنها توشك أن تتبين خطأ هذا التحسـب فتـتداركه بالتصـحيح بدعـم توجهات الإصلاح. وأمريكا تخطئ خطأ فادحا إذ هي تستمر في تحيزها للباطل الأسـرائيلي وجفائهـا للحق العربي في فلسطين، تحسبا أن الارتباط بإسرائيل كحليف استرايجي يغني عن كسب صداقة العرب لأجل حماية المصالح الأمريكية في الوطن العربي. هنا أيضا أجد أمريكا تتدارك خطأ رست عليه طويلا، أضرت به العرب وتضررت به، وأجدها تبادر إلى تصحيحه بدعم قيام وطن فلسطيني مستقل.

لقـد حاولت الدبلوماسية العربية على مدى عقود مضت إقناع الأمريكيين بظلامة موقفهم من حقوق شعب فلسطين، دونمـا جدوى تذكر. أحد أهم أسباب هذا الإخفاق، بنظري، علاقة عربية أمريكية مضطربة أضعفت الثقة لدى كل جانب فـي الجانـب الآخر طوال عقود الحرب الباردة، وإبان العقد الأخير، وراكمت سوء فهم متبادل فرش ظلاله على التعامل بيـن الجانبيـن. إن الهم الأول لدى الدول في المعتاد هو حماية أمنها ومصالحها الحيوية، وحيثما تستشعر، صوابا أو خطأ، تهديدا لأيهما، مستظهَرا أو مستبطنا، تصد التهديد وتتصدى لمصدر التهديد. شيئ كثير من هذا المنطلق والمنطق تسـرب إلى العلاقة بين أمريكا والعالم العربي فأعطبها، وقد آن أن يزال لصالح علاقة مريحة ومطمئنة للجانبين...علاقة تؤكد وجهة التعاون لا التصادم، وتمهد لتحقيق حل عادل، شامل، ودائم في فلسطين.

## في الجانب الأمريكي:

لقـد تناولت حتى الآن نصف المشكل، فلأنتقل إلى النصف الآخر– تحديدا: إلى بناءات سوء الفهم التي أجدها لدى الأمريكيين إزاء العرب.

ابـتداء، أستشـف نظرا في الحديث الأمريكي أنْ ما عاد العرب أمة واحدة، لذا لا مبرر لتعامل أو تخاطب معهم على أسـاس قومـي...أنْ كان العرب أمة فلم يتماسكوا، فتفرقوا في شعوب أضحت متغايرة النظام والظرف والهم والوجهة، وبذلـك فقدوا سمات وفاعليات الأمة الواحدة...أنْ كانت للعرب حضارة مشهودة، لكنها انحصرت من يوم أن آثرت النقل على العقل، والفردية على الشورى، في تنظيم الشأن الحياتي وتقرير قاعدة الحكم.

أسـتقرأ نظـرا مؤداه أن البعثرة العربية تخدم الغرض الأمريكي، لذا يُؤثر استمرارُها، إذ لو تماسك الواقع العربي لصـعُب ترويضـه: لاسـتغنى عن غطاء استراتيجي خارجي، لشكل مصدر ضغط إزاء أمور حيوية في التعامل الثنائي والدولـي، ولأضحى ذا تأثير ذاتي قوي في دفع القضية الفلسطينية إلى حل مقبول عربيا وغير مريح لإسرائيل. لذا، لا يُدعم أو يشجع أي سياق تضامني عربي، لاحتمال أن يرفع من قدرة العرب الجماعية على التأثير في سير الأمور.

اسـتقرأ انطـباعا أن العـرب فـي حال عجز مستديم. فبالرغم مما تتوافر حواليهم من أسباب الحداثه، من علوم ومهـارات وإمكانات هذا العصر، فإنهم فقدوا قدرة الاقتباس والتطوير، تلك التي امتلكوها بتفوق إبان عصرهم الذهبي. فـي هذا الحاضر، الرفاهية الميسّرة بالثروات النفطية لدى بعض منهم، الاستئثارُ بالسلطة واحتكارُها ضمن أسرهم لدى الـبعض الآخر، والتشبثُ لدى مجتمعاتهم عامة بمفاهيم لم تعد تستقيم مع مفاهيم هذا العصر، أو تستوفي متطلبات تنمية إنسانية جامعة... كل ذلك يُقعدهم عن استصلاح ذاتي جدير

نوعية الحكم والحكام في دنيا العرب في الانطباع الأمريكي مخبر صادق عن حال العرب. مقولة "مثلما تكونوا يولى علـيكم" – وهـي من مستخلصات الخبرة العربية ذاتها – قلما تعكس صدقية بمثل ما تعكسها في دنيا العرب. بالنتيجة، العرب من التخلف بحيث لا يُتوقع أن تتكون لديهم قريبا قابلية استيعاب مفاهيم هذا العصر، أو رغبةُ ترجمتها إلى واقع الحـياة الوطنـية – مفاهـيم كالديمقراطـية، وحقوق الإنسان، والمواطنة المتكافئة في الحقوق السياسية والمدنية بين المواطنين كافة، وبين الذكور منهم والإناث.

أخيرا، استقرأ نقدا أن المفكرين والكتاب والخطباء في دنيا العرب ما زالوا في الغالب ينظرّون لنموذج معرفي سلفي – أنهم ما زالوا يجترون الماضي أكثر مما يستنبطون الحاضر أو يستطلعون المستقبل. بذلك تحجب في الخبرة العربية إزمانـا إمكاناتُ التطور، تصد مبادرات الإصلاح، ويهزم طموح التقدم. بذلك يغدو التراوح في المكان، كمانع للتراجع على الأقل، إنجازا في حد ذاته.

غياب التوازن:

هنا أيضا لا أظن أنني أخطأت كثيرا أو بالغت في استقراء بعض ما يروج عن العرب في الحديث الأمريكي. لا أزعم أن لـيس لهذه الانطباعات قسط من الصحة أو أساس في حقيقة الأمر. لا أرى أن لا يعبر عن هذه الانطباعات أو أن لا يذكـر مـثلها علـى الإطلاق. لكنني أزعم أن من الأجدر النظرُ إلى كلية الصورة لا جزئيتها، وذكرُ الحسنات إلى جانب السـيئات ابتغاء الموضوعية واتقاء التعصب. إن الحسنات يذهبن السيئات، بذلك ينبئنا القرآن الكريم. ويدلنا العقل على أن من الحصافة تأكيد الحسنات لأجل ترجيح حسن الظن.

بـنظري، مـع أن لهذه الانطباعات ما يشفع لها في ظاهر الحال، إلا أن نظرا أدق قد يوصل إلى فهم وتفهم أرحب. صـحيح أنّ مـا عـاد للعـرب كيان جغرافي-سياسي موحد، لكن لا يزال لهم واقع قومي يحفظ فيهم شعورا قويا بوحدة الانـتماء. نشهد ذلك في التفافهم حول الهم القومي المشترك من وراء ما لهم من اهتمامات قطرية متعددة، بل وأحيانا متعارضـة. نشهده في دفاعهم عن أية أرض عربية تتعرض لمطمع استلاب خارجي، في تعلقهم بوحدة الوطن من وراء تعددية الأقطار، في تقديمهم الهوية العربية في تعريف أنفسهم لدى الأمم على هوية القطر، في تمسكهم بالثقافة العربية كثقافة أم، وفي قناعتهم المشتركة بوحدة الخبرة التاريخية ووحدة المصير.

نشـهده بشـكل أوضـح وأوكد في تضامن العرب إزاء الحق الفلسطيني في النزاع مع إسرائيل، وفي امتعاضهم من الموقف الأمريكي المتجاهل للحق الفلسطيني. لدى معظم العرب، صعب جدا الاقتناع بأن الولايات المتحدة، بما تمتلك من إمكانات متعددة ومتفوقة، بما لها من دراية متعمقة وبعدِ نظر في سياق العلاقات بين الأمم، وبما لديها من حس متميز بقضـايا العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان ...أن تعجز، رغم ذلك، عن إيصال القضية الفلسطينية إلى مستقر منصف ومعقول. ألأرجح، إذن، أن أمريكا تستطيع، لكنها لا تريد...أن هناك إغراضا سياسا يؤثر استبعاد الحل واستبقاء النزاع. إن من الصعب لوم العرب على استنتاج كهذا وهم يشهدون نجاعة الإسهام الأمريكي في حل مختلف قضايا العصر.

وصحيح أنّ ما كان للعرب فيما مضى من حضارة متألقة لم تعد متألقة اليوم. لكنها حضارة ما زالت حية في الوعي العربـي. إنها لا تزال مستودعة ما تنامى فيها في قرون خلت من قابليات ارتقت بها في شتى المعارف والخبرات حتى سـرى خـيرها وعم أثرها في خبرات سائر الأمم. إن التجزء الجغرافي-السياسي لا يعني التفككك الحضاري. حضارة العـرب، أو سمها باسمها الأعم، حضارة الإسلام، سادت لكنها لم تبد أو تندثر. إنها لا تزال تستحضر في وعي الإنسان العربـي المُـثل التي يمكن أن تبصر فكره، تقوم مسلكه، وتنظم حياته على نحو أرشد وأوفق. إنها لا تزال تحذره من مغـبة الخمول، والجهل، والترف، والغلو، والإثرة، والتمايز بالنسب، والفردية في الحكم، وتطالبه بالمجاهدة، والتعلم، والاقتصـاد، والاعـتدال، والمساواة بين الناس، والشورى في الحكم والحياة. إنها لا تفتأ تحثه على التعارف مع الأمم، علـى اقتباس النافع مما تنجزه، وعلى التعاون معها في إعمار الأرض وتوفير الأمن واليسر في حياة الناس. نعم، إنها حضارة ركدت، لكنها لم تندثر، بل إنها لتنتظر من أهلها تفعيلا مستنيرا واستظهارا من جديد.

مسيئ بالعلاقة العربية الأمريكية أن يبقى الحديث الأمريكي مصرا على ترديد ما يراها أوجه قصور في الحال العربي وكأنـه يـريد تكريسها بالترديد. أجدر به أن يستطلع من وراء القصور ما تحيا في الخبرة العربية من إيجابيات حفظت لهـذه الأمـة تماسـكها وتواصلها الحضاري عبر قرون طويلة اضطرب خلالها الحال العربي أيما اضطراب. أجدر به أن يتلمس ما لا يزال يشع في النفس العربية من تطلع نحو الأقسط والأقوم والأرحب والأوفى في هذه الحياة، للنفس وللغير. تحديـدا، لا يجدر بالحديث الأمريكي أن يعادي أو يتجاهل حقيقة طموح العرب إلى وضع ديمقراطي تضامني أمثل يصلح به حالهم، يلتم به شملهم، ينتظم به أمرهم، تتعزز به ثقافتهم،... وضع يمكنهم من تفعيل قابلياتهم الحضارية جماعيا من جديد.

بـنظري، أيضـا، خاطئ التحسب الأمريكي أن التضامن والإصلاح السياسي لدى العرب من شأنهما تصعيب التعامل الثنائي. عكس ذلك، التضامن والإصلاح أدني أن يزيلا التردد والتبعثر في القرار العربي، وأجدر أن يكسباه ثباتا وسدادا وتقـبلا علـى صعيد الأمة ككل. كل هذا من شأنه أن يجعل القرار العربي أركز أساسا وأصلح إطارا لبناء علاقة عربية أمريكية متينة، جامعة، متطورة، متوازنة، ...علاقة تصون وتنمي أهم ما يتصل بمصالح الأمتين.

نعم، الواقع العربي في حاضره واهن ومعطوب، وعن وهنه وعطبه، حدث – كما يقال – ولا حرج. لكنه ليس بواقع عاجـز مطلقـا، أوعقيم أفرغ من مُكنة التطوير. هو واقع ما زال منفتحا على النفض والبعث، وعلى الدفع إلى نهوض حضـاري. تلـك طـبعا مهمة عربية ذاتية، لكن حديثا أمريكيا مشجعا، مستحفزا، ومنما عن صدق الرغبة في أن يكون للعرب كافة غد أفضل، سيبتعث ثقة متبادلة وحسنَ ظن.

ليسـت مفاهـيم هذا العصر، أو بالأحرى، ترجماتها الدستورية المعاصرة – تحديدا: الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحريات المدينة، التساوي أمام القانون، التكافؤ بين الذكور والإناث – محجوبة عن العقل العربي ولا مرفوضة منه، ولا نابـية لديـه. ليسـت نقيضـاتها مقبولة عنده أو مستساغة لديه. في المنظومة القيمية العربية، المستمدة من الإسلام الحنـيف، سـعة لهذه المفاهيم، عمق في إدراك مقاصدها في تقويم وتطوير خبرة البشر، وندب إلى ترجمتها إلى الواقع المعـاش. نعم، يوجد في الخطاب العربي الداخلي في هذا الحاضر إعراض عن هذه المفاهيم وإقبال مبالغ على الماضي ومأثوراته. لكنك إذا أمعنت، ألفيت ذلك عاكسا نزعة نفسية للتحصن بمعلوم سلفي في وجه تعرض لمجهول عصري، في

حالــة ضعف شديد. بزوال حالة الضعف، باستعادة الثقة بالنفس، بالاطمئنان إلى العالم الخارجي، بتحسس جدارة الذات من جديد، أرجح أن يجد العرب في أنفسهم قدرة وهمة على الاستصلاح بحجم كبير.

مــن هنا أزعم أن هنالك فارقا يجدر بالحديث الأمريكي أن يستوعبه، بين واقع الأمة العربية من جهة وتطلعاتها من الجهة الأخرى، وأن يتصرف من وعي بهما ومراعاة لهما معا في آن واحد. لقد قيل أن الصديق من لا يعيب بواقع حال مــنقوص، أو مــن يستغله. إنه بالأحرى من يشجع، بل يعين، على تجاوزه إلى حال أوفى وأفضل. الحديث الأمريكي مدعو أن يتبنى خطاب صديق للأمة العربية كافة، وليس لقطر عربي دون آخر. إنه مدعو أن يراعي شعور وحدة الأمة لــدى العــرب، من وراء التعامل مع حكومات متعددة. إنه مدعو أن يلمس الجدارة الحضارية للأمة العربية، لا جدواها كخــزان نفط. إنه مدعو أن يحاور جماهير العرب، لا مؤسسات الحكم فحسب. ذلك أدنى أن يزيل سوء الظن، يرجح سلامة القصد، يحفز على التعاون، ويوصل إلى حلول مرضية حول قضايا حيوية معلقة بين الجانبين.

<u>دعوة للارتقاء:</u>

مــن مجمل ما عرضت، أرجو أن يكون قد اتضح أن ما أدعو إليه هو تخليص العلاقة العربية الأمريكية مما يلازمها مــن تصــدع وتــأزم، وأن مــا أنصح كمدخل إلى ذلك، كأمر أول وأساس، هو تخفيضُ الصوت، تهذيبُ القول، وتقديمُ الإيجابي على السلبي في حديث كل منا عن الآخر. لقد قيل أن الكلمات إما تخدُم أو تسيطر: حيث تخدُم ترشدنا للصواب، حيــث تســيطر تغمر عقولنا بانفعال يفقدنا الصواب. أن نؤكد ما هو جدير فينا وبيننا محل ما هو غير جدير، أن نذهب المســاوئ بالمحاسن، أن نعي دوما أن لا أحد منا يستغني عن علاقة طيبة مع الآخر، أن نستشعر مسؤوليتنا سويا إزاء تجنيب أجيالنا الصاعدة تبعات خصام مضن وعقيم... كل ذلك سيهيئنا معا لاستقبال عهد تعاوني جديد.

اســتقدام هذا العهد الجديد مهمة أراها في عاتق الكتاب والإعلاميين وصانعي الرأي عامة في المجتمعين أكثرَ مما أراهــا فــي عــاتق الحكومات. وراء ذلك، هي في عاتق أي واحد منا يثمن علاقة عربية أمريكية جيدة كجزء هام من مــنظومة تعــايش الأمم كافة سلميا وتعاونيا في هذا العالم المزدحم. هي مهمة تطالبنا أن نمارس حوارا بناء من نوع يشــرح ولا يجرح، يعرض ولا يفرض، يقارب ولا يباعد، يعتمد الحق ويحتكم إليه، ويحرُص على التواصل والتواد حتى في أحلك الظروف.

مــن عــناية الله بالبشــر أنه إذ أوكلهم إلى أنفسهم ليميزوا بين الصواب والخطأ، أودع فيهم قدرة التصحيح حيثما يخطأوون. سوء فهم الآخر خطأ قابل، بل مستوجب، للتصحيح. بل وإن مما أودع الله من قابليات الخير في الإنسان أن مكنه من قلب كره إلى ود، وعداوة إلى صداقة. إلى تفعيل هذه القابلية في أنفسنا يدعونا القرآن الكريم، منبها أن إحداث تحــول جذري في حال الخصم يتطلب تأكيد الحسَن من القول والعمل، كما يتطلب صبرا وسُمو خلق: باسم الله الرحمن الرحــيم: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يُلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم".

أعتقد ليس كثيرا أن نطالب أنفسنا – أمريكيين وعربا – بالارتقاء معا في علاقتنا ببعض إلى هذا المستوى الإنساني المثيل. أعتقد أن لا بديل لنا معا عن مثل هذا الارتقاء، لنحقق توافقا، ونتجنب تنافرا، بين حضارتين عظيمتين.

شكرا

صادق جواد سليمان

(سفير عُمان سابقاً في واشنطن)